العدد (1932) السنة الثامنة - الأربعاء (13) تشرين الأول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

على هامش الصراحة

مجلس المشورة

■ إحسان شمران الياسري

بعد أن فاض الكيل به. فكر كثيرا" في حل لمشكلة دائرته المزمنة.. أكثر من مئة موظف، واقل من ربعهم نافعون.. والمشكلة كما هو معروف، إن النافعين يعرقلهم أضدادهم، يعرقلون منحهم الفرصة للعمل، ويعرقلونهم لان بعضهم رؤساء وبعضهم مرؤوسون، ويعرقلونهم لأنهم يحبطونهم.. فما من فرصة ستأتيهم طالما إن العناوين الوظيفية محـدودة، والفرص الإدارية للتقدم محدودة، والحقوق التي اكسبها لهم (الزمن) موجودة.

وما من دائـرة في الـوزارة تقبل موظفين فاشلين يأتوها من دائرته.. فكر المسكين كي ينعش روح العمل وينجز مهام دائرته.. وبعد الضراعة إلى الله تعالى، ألهمه الباري فكرة إنشاء شعبة في الدائرة تحتضن هؤلاء (الأكفاء!!) وتسحبهم من مفاصل العمل التي يعرقلونها.. فيطور العمل من جهة، ويحفظ كرامة هؤلاء (التنابلة) من جهة ثانية..

فرفع مذكرة إلى وزيره قال فيها ما معناه:

(إن هذه المؤسسة العتيدة التي نديرها بلا فخر، حباها الله تعالى بزمرة من أكفأ موظفي الـوزارة، يزّقون العلم زقا"، وتفيض خبرتهم من بين أيديهم ومن تحت ألسنتهم وتشع من عيونهم.. ولان الأعمال التنفيذية قد تستنزف طاقة أمثال هؤلاء الخبراء، بل إنها أصبحت دون مستويات تنفيذهم!!، وان ساعة احدهم تعادل سنة أي فرد آخر من المؤسسة، فأنني اقترح إنشاء شعبة في المديرية تسمى (شعبة المشورة)، ننقل إليها عدداً من الزملاء الذين ينفعنا فكرهم وخبرتهم، أكثر مما ينفعنا عملهم في المهام اليومية..ولكي تتاح للجيل الشاب غير المتمرس أن ينهل من خبرتهم وتشجيعهم وهو يباشر ممارسة المهام التي كانوا يمارسونها..

فأرجوك يا معالي الوزير، أن تمنحنا فرصة الانتفاع من هذه الخـبرات التي نتعثر بها يوميا دون أن نحتويها في وعاء نافع تُصب فيه خبرتهم لتتناقلها الأجيال، جيلاً بعد جيل..

وقد وافق معاليه مشكورا" على الفكرة.. وباشر صاحبنا التبديل، وكلما استبدل احد الخبراء من (أهل المشورة)، بأحد المبتدئين من (المزعطه)، سار العمل بشكل أفضل.. وما هي إلا ثلاثة أشهر استبدل فيها الأغطية الثقيلة الجاثمة على قلبه، بالوجوه الجديدة، حتى صار الأمر أفضل له ولهم ولنا وللبلد.

ihsanshamran@yahoo.com

الانـتـخـابـات.. والـعـنـف المنـتـظـر

حسين عبد الرازق

تشير كل الدلائل إلى أن انتخابات مجلس الشعب القادمة ستشهد سخونة غير مسبوقة، ليس فقط لأهميتها في حسم قضية التغيير من عدمه وكونها تسبق مباشرة انتخابات رئاسة الجمهورية وتصاعد احتمال ترشيح الرئيس حسني مبارك لفترة رئاسية سادسة (!) بما يعني بشكل قطعي استمرار السياسات الراهنة المطبقة منذ ثلاثين عاماً (١٩٨١ – ٢٠١١).. ولكن لأن الأحزاب والقوى السياسية الرئيسية في المجتمع حسمت خوضها هذه الانتخابات ورفضت دعوات المقاطعة، وأعلنت بعضها أنها تخوض الانتخابات من أجل التغيير وهزيمة التزوير الذي أصبح سمة رئيسية لكل الانتخابات العامة.

فالحزب الوطني الذي احتكر الأغلبية المطلقة في مجلس الشعب – بالتزوير – منذ بدء التعددية الحزبية المقيدة عام ١٩٧٦، قرر أن يخوض الانتخابات القادمة بمنهج جديد يقوم على منع أعضائه الذين لا يرشحهم الحزب من خوض الانتخابات كمستقلين (أو مستقلين على مبادئ الحزب الوطني كما كانوا يعلنون في الانتخابات السابقة)، ولتحقيق ذلك أمام ما يسمى بالمجمعات الانتخابية التي تقدم لها عدة آلاف من أعضاء الحـزب، وحصل على توكيل من جميع المتقدمين يعطي الحزب الحق في التقدم بالترشيح نيابة عنهم والتنازل أيضاً عن الترشيح إذا لزم الأمر، وهو ما يعني أن الحزب مطالب بتحقيق الأغلبية التي تمكنه من السيطرة على مجلس الشعب (ثلثي المقاعد أي ٢٩٦ + ثلثي مقاعد المرأة)، وقد فشل الحزب الوطني في انتخابات مجلس الشعب عام ٢٠٠٠ في تحقيق الأغلبية ولجأ إلى ضم مئات النواب الذين خاضوا المعركة كمستقلين إلى هيئته البرلمانية ليضمن أغلبية الثلثين، وتكررت نفس الظاهرة عقب انتخابات مجلس الشعب عام ٢٠٠٥، من هنا فالمؤكد أن الحزب الوطني وحكومته سيعتمدان التزوير بصورة سافرة وعنيفة ليحققا الأغلبية المطلوبة من خلال مرشحيه الرسميين، بعد أن فقد ورقة (المستقلين على مبادئ الوطني).

وسيواجه في هذه الانتخابات منافسة قوية من أحزاب الوفد والتجمع والناصري والغد والكرامة، ومن جماعة الإخوان المسلمين، ومن المستقلين، وحتى من الأحزاب الصغيرة الأخرى.

فالتجمع يخوض الانتخابات بأكثر من ٧٠ مرشحاً، والوفد بأكثر من ١٥٠ أو ٢٠٠ مرشح، والإخوان المسلمين بحوالي ١٥٠ مرشحاً.

وتجمع هذه الأحزاب والقوى السياسية أن معركتها لن تدور فقط من أجل الحصول على مقاعد مجلس الشعب القادم، وإنما أساساً من أجل فتح الطريق أمام التغيير وكشف التزوير وهزيمته ومواصلة معركة توفير الضمانات لانتخابات حرة نزيهة وطرح برامجها للتغيير السياسي والدستوري الديمقراطي ومن أجل تحقيق برامجها الاقتصادية والاجتماعية.

وأعلن التجمع تحديداً أنه سيواصل معاركه قبل وأثناء وبعد الانتخابات من أجل تعديل الدستور وتقليص هيمنة السلطة التنفيذية على باقي السلطات وتقليص السلطات المطلقة لرئيس الجمهورية والتحول من جمهورية استبدادية إلى جمهورية برلمانية ديمقراطية، ومحاربة الفقر والبطالة والفساد.. إلخ، وسيعتمد في ذلك على النزول للشارع وتوزيع البيانات وعقد المؤتمرات وتنظيم المسيرات السلمية والوقفات الاحتجاجية، وسيدعو أحزاب المعارضة والحركات الاحتجاجية السياسية لمشاركته في هذه المعارك الجماهيرية.

وإذا تحقق ذلك بالفعل فسنشهد عنفاً من جانب السلطة ورجال المال المتحالفين معها، مما قد يستدعي عنفاً مضاداً من قوى سياسية أخرى كالإخوان المسلمين، خاصة والجماعة تتصرف في ضوء ما يتردد بقوة عن وجود قرار سياسي أمني بإسقاط الإخوان ومنعهم من دخول البرلمان بأي ثمن.

والسـؤال الملـح: كيف ستتصرف الأحـزاب المدنية الديمقراطية في مواجهة هذه الأخطار المحدقة بالانتخابات وبالعملية الديمقراطية كلها؟

تـنـاقـضـات فـي الـكـيـان الـصـهـيـونـي

فريدة النقاش

قررت وزارة المعارف الإسرائيلية تدريس اللغة العربية إجبارياً في كل المدارس (اليهودية) الابتدائية في إسرائيل بهدف التعرف الحقيقي علي العرب وتمهيد الأرض للتعايش بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

ويفتح مثل هذا القرار الباب واسعاً أمام مجموعة من الأفكار بل المشروعات المطروحة على الساحة من أجل حل القضية الفلسطينية، وقبل أن أستطرد أؤكد أن مئات الآلاف من اليهود الشرقيين الذين جاءوا من البلدان العربية من المغرب وتونس، ومن العراق ومصر وسوريا، يستمعون إلى الأغنيات العربية ويتعلقون بالأكلات وطرز الملابس التي جاءوا بها من بلادهم، ويحتفظون بذكرياتهم السعيدة في العيش في هذه البلدان، أقول إن هؤلاء اليهود الذين دفع بهم الاضطهاد والتمييز والعزلة إلى التعصب سوف يكونون من السعداء لتلقي هذا الخبر، لأن مثل هذه الممارسة ربما تعيد إدماجهم – ولو معنوياً – في الأوطان التي جاءوا منها، والأهم من ذلك أنها ستقربهم من الفلسطينيين سواء الذين بقوا في أرضهم بعد اغتصاب وطنهم عام ١٩٤٨ أو فلسطينيي الضفة الغربية وغزة والشتات.

قال مراسل الجزيرة في فلسطين (إلياس كرام) إن هذه الخطوة سوف تكتمل إذا ما اقترنت بتدريس الرواية الفلسطينية عن نشأة إسرائيل هؤلاء الطلاب وكيف جري اقتلاع شعب من أرضه ليحل سكان يهود من كل بقاع الأرض محله وكيف أن ضحية النازية والهولوكوست قد أصبح جلاداً لشعب آخر.

وقد يتصور البعض أن مثل هذا المطلب هو مطلب خيالي، والحقيقة أن هناك فعلا إسرائيليين ضد الصهيونية وإن كانوا أقلية شديدة، كما أن هناك مدرسة المؤرخين الجدد التي شكلها باحثون وأساتذة وكتاب يهود اتسموا بالنزاهة وتوخوا الوصول إلى الحقيقة في عملهم، ونشروا كتبهم وأبحاثهم على نطاق ضيق وإن كان صدى نشرها قد طبق الآفاق، وجعل كثيرين من العرب الذين كانوا يدعون لإبادة إسرائيل ينصتون لصوت جديد يدعو للتعايش، وتنتصر بعض أفكار المؤرخين الجدد خاصة بعد انهيار نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وتأسيس نظام للتعايش بين الأغلبية من سكان البلاد والأقلية البيضاء من سلالة المستوطنين الغزاة، ولعل درس الكفاح الفلسطيني ضد الغزاة الصهاينة، وضد فلسفتهم العنصرية الاستعلائية أن يعلم هؤلاء الغزاة – كما تعلم البيض في جنوب أفريقيا – أنه ليس حراً ذلك الإنسان أو النظام الذي يستعبد شعباً آخر، وأن الكفاح الوطني لا يحرر المقهور وحده وإنما يحرر القاهر أيضا من نزعاته الوحشية الاستعمارية العنصرية سوف يقول قائل: إن ذلك حلم بعيد المنال في ما يخص فلسطين، حيث تحظى إسرائيل بالحماية من قبل القوة الإمبريالية العظمى في بلادنا أي أمريكا، وهو القول الذي ينقلنا إلى سياق آخر هو السياق السياسي.

أما تعلّم الإسرائيليين اللغة العربية وتعلّم العرب الفلسطينيين اللغة العبرية فهو سياق آخر يحفر عميقاً في مجرى التعايش والثقافة إحدى أدواته، شرط أن يعاونها السياسيون باستخدام كل الآليات التي تؤدي لسلام عادل طبقاً للمعايير الدولية، ويملك العرب مثل هذه الآليات التي تحتاج لإدارة سياسية حرة.

الباب الذي يفتحه – ولو موارباً – قرار إسرائيل تعليم اللغة العربية في مدارسها بعد أن سبق أن ترجموا عيون الأدب العربي بل احتفوا بمحمود درويش على نحو خاص، يدعونا أيضا لأن نتعلم بجدية درس الدولة الواحدة ثنائية القومية الذي جرى التوصل إليه من جنوب أفريقيا، وسبق أن طرحته بعض الفصائل الفلسطينية والعربية، كما دعا إليه العقيد الليبي معمر القذافي، وهو حل يطيح بالنزعة العنصرية المتزايدة من أوساط اليمين الفاشي الإسرائيلي الحاكم الذي يدعو الفلسطينيين والعرب للاعتراف بإسرائيل دولة للشعب اليهودي، وقد صاغت هذه الدوائر الفاشية فعلا قسماً تدعوه قسم المواطنة وتدعو الجميع لترديده للحصول على الجنسية ويقول أيضا إن إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي لينفي بقية السكان العرب من مسلمين ومسيحيين ولا دينيين.

إن القرارين معا، تدريس اللغة العربية وصياغة القسم الجديد يكشفان عمق التناقضات التي تأكل الكيان الصهيوني الذي يسعى للانفتاح علي الآخرين من جهة، ومن جهة أخرى يتشرنق في (يهوديته) وعزلته، ونحن مطالبون بأن نحلل كل هذه الظواهر بنزاهة وجدية في سعينا للوصول لحل سلمي قائم على الشرعية الدولية لقوانينها ومعاييرها التي تحفظ الحد الأدنى من حقوقنا.

إدوارد سـعـيـد: المـنـفـى والـهـويـة.. الأنـا والآخـر

سعد محمد رحيم

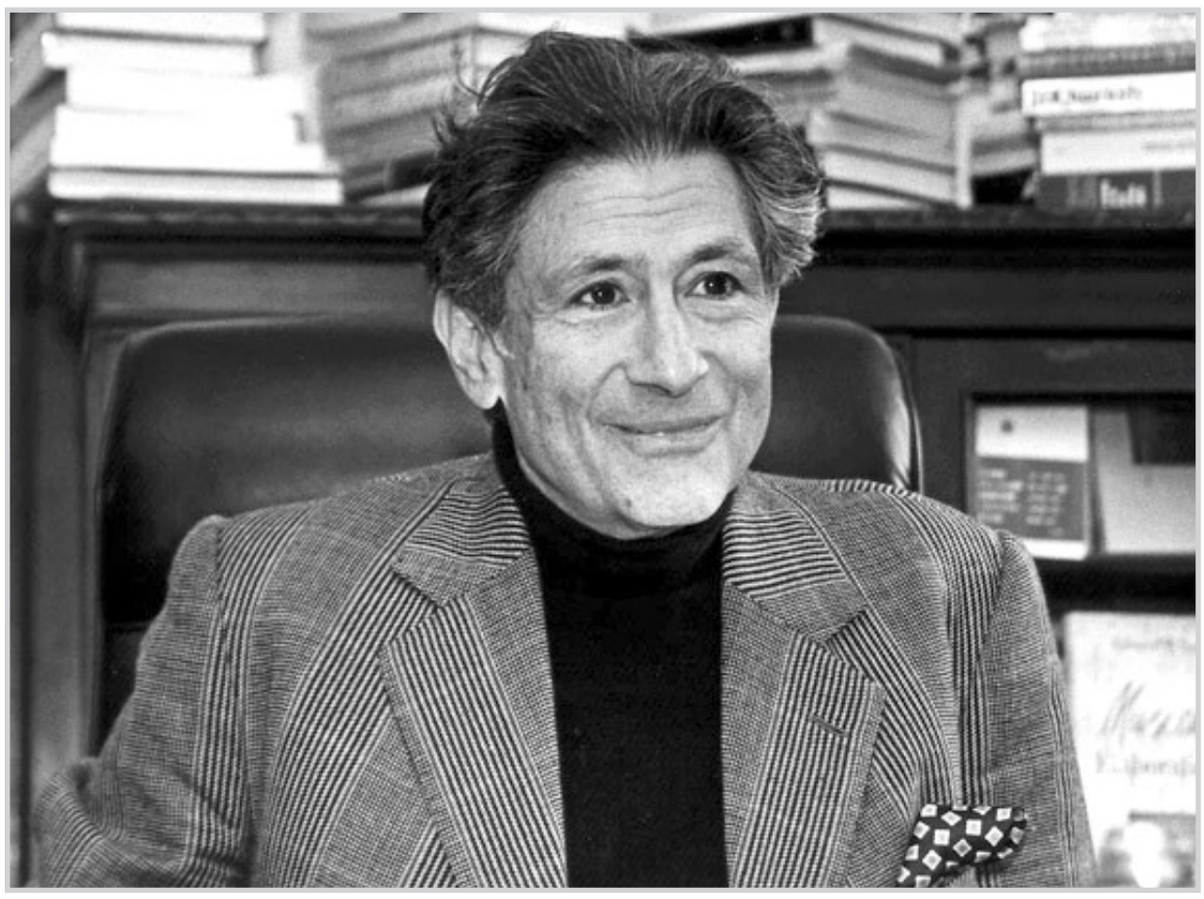

لا يستطيع الباحث ما بعد ـ الكولونيالي، والذي تشغله (الهوية) مفهوماً اجتماعياً وتاريخياً، و(الهوية) هاجساً وهَوَساً شخصياً تجنب العودة إلى فرانز فانون. وكتابات فانون ظلت أحد مصادر سعيد الرئيسة في مسائل الاستعمار والهيمنة والمقاومة والهوية، مثلما ظلت مصدرَ المنظّرين ما بعد ـ كولونياليين مثل هومي بابا.

كان فانون أول من تنبه إلى المأزق الوجودي والنفسي والسياسي الذي يترشح عن فعل الاستعمار، والموقع الملتبس الذي يجد فيه كل من السيد والعبد (المستعمِر والمستعمَر) نفسيهما نتيجة ذلك. فالاستعمار خلق رضوضاً في نفوس المستعمَرين، لا شك. لكنه، كذلك، خلق رضوضاً في نفوس المستعمِرين.. كان المستعمِر والمستعمَر معاً، بعد انقضاء العهد الكولونيالي بحاجة إلى شفاء، إلى تطهر روحي ونفسي وفكري.. إلى مراجعة للذات والتاريخ.

(٢.٢)

يدرك فانون أن "ما يُطلق عليه في كثير من الأحيان الروح السوداء هو في حقيقة الأمر من صنع الإنسان الأبيض". ليس هذا وحسب، ففي الحقيقة، وطبقاً لفانون مرة ثانية فإن "كل من الزنجي الذي تستعبده دونيته، والأبيض الذي يستعبده تفوقه يسلكان بالمثل تبعا لتوجه عصَابي".

من هنا يتحدد فضاء (الهجنة) ويفرض منطق (الترجمة الثقافية) نفسه على الباحث ما بعد . الكولونيالي بدءاً من الحاجة، كما يقول هومي بابا "إلى المضي بالتفكير أبعد من سرديات الذاتيات الأصلية والبدئية والتركيز على تلك اللحظات أو السيرورات التي ينتجها الإفصاح عن الاختلافات الثقافية. فهذه الفضاءات (البينية) تفسح المجال لبلورة الستراتيجيات المتعلقة بالذات والذاتية . فردية كانت أم جماعية . الأمر الذي يطلق دواليل جديدة للهوية، ومواضع جديدة للتعاون، والتنازع، لدى القيام بتحديد وتعريف فكرة المجتمع ذاتها". وبابا يطرح أمامنا سلسلة من المفاهيم المتآزرة التي توطد أطروحته النظرية كالفرجات الخلالية والهجنة البينية والانشطار والاختلاف والترجمة والهوية. والهوية في منظور بابا "من حيث تعيينها ليست نتاجاً قبلياً ولا مكتملاً، فهي ليست سوى تلك السيرورة الإشكالية الدائمة من النفاذ إلى صورة للكلية... ليست الصورة أبداً سوى ملحق بالسلطة والهوية؛ فلا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تُقرأ محاكاتياً بوصفها مظهراً لواقع. وليس النفاذ إلى صورة الهوية ممكناً أبداً إلاّ بنفي أي إحساس بالأصالة أو الكمال".

يقوم الانشطار بين تلافيف اللغة بفتح السبيل أمام ممكنات البلاغة والفرص الوافرة للتأويل. وكل حالة تأويل أو تحريف للمعنى، في الخطاب الكولونيالي تتوطد بمقتضيات المصلحة السياسية غير أنه ينطوي على ضدّه أيضاً، إمكانية نفيه أو دحضه. بالمقابل فإن التناظر الماثل بين ديالكتيك الطبيعة وديالكتيك التاريخ (بالمفهوم الأنسني) يوجب الحاجة إلى الآخر.. يوفر فرصة التجاذب، غير أن هذا يبقى مثالاً ممكناً، افتراضاً مطلوباً. بيد أن ما يهمّنا، هنا، هو الصورة المختلقة؛ حصر واعتقال الآخر في صورة (دونية وساخرة) لفقها التاريخ الكولونيالي بتواطؤ مع مخيلة مرمنسة جامحة لن تكون بريئة، في الغالب، حتى وإن كانت حسنة النيّة، فهي نتاج ذلك التاريخ نفسه.. تاريخ الهيمنة؛ خطابها وسلوكها، تسويغاتها وآثارها.

ومثلما قال دزرائيلي؛ إن الشرق صنعة (حياة عملية) فإن صورة الأنا والآخر، مثلما تُرى، واقعة ثقافية وسياسية.. صناعة تاريخ إشكالي.. ليس التاريخ المزعوم والمصمم سلفاً في ضمن تجريدات مركز علوي مفارق وإنما المؤسس بأيدي البشر وإرادتهم على وفق ما يذهب إليه فيكو.. من هنا تصبح صورة الشرق ملفقة، متوهَمَة أو مؤسطرة، قد تكون مفعمة بلمسات شعرية، إلاّ أنها مخترقة في العمق بنيّات السياسة وفرضيات إيديولوجيا المركزية (الإثنية) الغربية.. هذا الشرق المرسوم على وفق ما يستنتجه إدوارد سعيد من نظام المعرفة الخاصة بالشرق في أوروبا، في كتاب (الاستشراق) لا يعتبر "مكاناً بقدر ما يعتبر موضوعاً أو عرفاً أدبياً بمعنى أنه مجموعة من الإشارات والإحالات، وحزمة من الخصائص، وهي التي قد تنشأ في ما يبدو من قول مقتطف يُستشهد به، أو من شذرة من شذور النصوص، أو من اقتباس من عمل كتبه شخص ما عن الشرق أو بعض ما تخيله أحد الأسلاف، أو من مزيج من هذه جميعاً. فالكتابة عن الشرق تقدّم قصصاً خيالية تتضمن الملاحظة المباشرة أو الوصف في ظروف معينة، ولكن هذه وتلك تعتبر ثانوية تماماً، وفي جميع الأحوال لمهام منهجية من نوع آخر".

في قلب هذه المعضلة/ الإشكالية متعددة الوجوه والمعقّدة في ما يخص الهوية يتحرى سعيد عن الأنا (العربية) وعلاقتها بالآخر الغربي ثقافةً وسلطة.. ففي مقالته (التمنع، التجنب، التعرف) يقول؛ "إن من المستحيل أن نحدد بوضوح ما ينبغي أن تكون عليه الهوية العربية المنشودة . وهنا أفصل نفسي بشدة على الذين يقولون ببساطة ينبغي أن نكون حديثين وفعالين ومتقدمين ومنظمين . فإن من الممكن القول بأن ما يعانيه العرب هو نمط وجودهم الهلامي في هذا العالم".

تأتي هذه القراءة عبر رصد سياسي ومعرفي لما حدث حقاً في الشرق العربي إبان فترة الاستقلال، حيث فشلت النخب في استعارة شيء جدّي من حداثة الغرب، وفي بناء الدولة الحديثة، وفي مواجهة الآخر والتعاطي معه بفعالية. وأخيراً في تشكيل الهوية القومية.. يتحدث سعيد عن علاقة العرب وثقافتهم بالغرب وثقافته، مشيراً إلى التمثيل المجازي الذي يستحضر صورة (اعتداء جنسي) في توصيف واقعة (العلاقة) تلك؛ "ولوج الثقافة الغربية في الثقافة العربية واغتصابها".

لن تكون ثمة ولادة ثقافية (طبيعية) من وجهة نظر سعيد طالما أن العملية قسرية، إذ لا يحصل تمثل خصب، ولا هجنة خلاقة إن صح استخدام مثل هذه العبارة.. يقول؛ "إن العرب الذين عاشوا في ظل التأثير الغربي صابرين أم نائمين يُلقمون قيماً غربية ولا يتمثلونها، مرّوا من وضعهم كضحايا لهذا الاغتصاب إلى حال التكيف معه متذمرين حيناً ونائحين حيناً آخر إلى أن صاروا بالنتيجة أولاداً لهذا الاغتصاب". حينئذ تفشل الثقافة (العربية) "في تحديد ذاتها تحديداً كاملاً. فالمجتمع لم يكبح الصراع داخل الجماعة ولم يدفعها إلى التماسك ولم يجعلها كياناً مختلفاً تمام الاختلاف أو يطلقها ضد الكيانات الأخرى".

وإذن ما مآل الإنسان العربي، في سياق هذه العلاقة المضطربة، المختلة؟. إنه في النتيجة "شخص مغترب لا يحس أنه متأصل في هذه الثقافة أو تلك وهو نفسياً غير قادر على قلب الأشياء وعاجز عن محاولة اختراق المرجع السلطوي الذي يخنقه".

ستكون صلة العربي بتاريخه خيالية.. إنه تاريخ ليس ثمة استمرار فيه.. وهو (أي العربي) يستعيده كطيف، كان ملكه يوماً ما، واليوم هو من دونه.. يعيش غربته الوجودية والحضارية، ومحنته السياسية . الثقافية وإخفاقه في مشروع الحداثة.. يقول سعيد؛ "كانت خطيئتنا كمجتمع في تجنب أزمة الهوية، تلك اللحظة الحاسمة حيث يخلف الإنسان ماضيه وراءه واعياً متأملاً، كيما يتمسك بالمستقبل. لماذا تركنا أنفسنا نطفو بشكل واضح كما تطفو قشور البرتقال على سطح البحر؟ لماذا لم نقل من نحن لأنفسنا وللآخرين على الصعيدين الجمعي والفردي؟ هذه هي الأسئلة التي ينبغي أن نجيب عنها قبل أن نباشر في عمليات التجديد الواسعة النطاق".

في استكشافاته لمناورات الإنشاء الخطابي الغربي وأحابيله لعلّ إدوارد سعيد ذهب أبعد مما يجب.. لعلّه رسم صورة نمطية عن الغرب مثل تلك التي رسمها المستشرقون عن الشرق، وانتقدها بمقدرة سجالية عالية في كتابه المثير للجدل (الاستشراق)، حيث فكك صورة الشرق الموهومة والمشوشة في ذلك الخطاب. حتى أن مستشرقاً من الصعب التشكيك بنواياه وأصالته العلمية مثل جاك بيرك انتقد سعيد لأنه "أدى خدمة مضادة لمواطنيه إذ جعلهم يعتقدون في تحالف مخابراتي غربي ضدهم". أو أنه وقع في فخ ما يسميه صادق جلال العظم بالاستشراق المضاد. لكن ما يُحسب لسعيد، في نهاية المطاف، قدرته على لفت انتباهنا إلى جملة من المسائل الخفية الماكرة التي تحدث في مناطق التنافذ بين الثقافة والسياسة.. بين الحيادية الظاهرة للغة وعدم براءة مقاصد استخدامها.. بين المعرفة والسلطة.. وأيضاً لأنه صاغ سردية فلسطينية موازية ومضادة للسردية الصهيونية وطرحها بقوة في المحافل الثقافية والأكاديمية والإعلامية الغربية والأمريكية.

لقد أقلقه طويلاً (باعترافه هو) التنافر الموجود بين مقطعي اسمه إدوارد بوقعه الإنكليزي وسعيد بوقعه العربي. إلى جانب ازدواجية هويته كونه مسيحياً فلسطينياً عربياً يحمل الجنسية الأمريكية.. إنه "ليس عربياً خالصاً مثل محمود درويش" يقول مكسيم رودنسون، ولذا فهو مثقل بشعور عارم بالذنب، يحاول من خلال زخم كتاباته عن موطنه الأصلي، والتورط بقضاياه، التعويض عن ابتعاده عنه. وإن معلوماته عن منطقته (تاريخها وأدبها ومدنها) قاصرة.. هذا ما يلح عليه رودنسون.

بالمقابل جرى التشكيك بهوية سعيد وسيلة للنيل من صدقية أطروحاته. وقد رأت جهات إسرائيلية إن الإطاحة بسردية سعيد الخاصة عن مكان ولادته ونشأته ودراسته في طفولته (سيرته الذاتية) ستطيح بسرديته (القومية)، لذا خُصصت أموال وجهود أفراد ومؤسسات للتحري في الوثائق القديمة بحثاً عن ثغرات وتناقضات وادعاءات غير صحيحة في ما يقوله (سعيد)، حيث أتهم بأنه "زيّف سيرته واختلق قصته وأنه لم يدرس في مدرسة سان جورج في القدس ولا يصح أن يسمّي نفسه لاجئاً، فأهله غادروا فلسطين قبل أن تسقط مدينة القدس نهائياً في أيدي عصابات الهاجاناه عام ١٩٤٨". وسينبري كتّاب عديدون للدفاع عن إدوارد سعيد وهويته وتفنيد الرواية الإسرائيلية، كما نقرأ، ونفهم الأمر، في كتاب (دفاعاً عن إدوارد سعيد) لفخري صالح.

ولا ريب أن سعيد تعرّض إلى حملات من الانتقادات الظالمة، وقد تخطى انتقاد أفكاره من قبل مفكري الغرب والمستشرقين إلى انتقاد منهجيته العلمية والمدرسة النظرية التي ساهم مع آخرين في ترسيخ أسسها الفكرية والمنهجية. أقصد؛ المدرسة ما بعد . الكولونيالية. يقول راسل جاكوبي؛ "هل يسيطر منظرو ما بعد الكولونيالية وهم يتحركون خارج نطاق الأدب التقليدي إلى مجال الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع والتاريخ والأنثربولوجي، على تلك المجالات المعرفية أم أنهم يتلكأون في أنحائها؟ هل هم دارسون جادون للتاريخ والثقافة الكولونيالية، أم أنهم فقط يضيفون النكهة على كتاباتهم بإحالات إلى جرامشي والهيمنة"؟. حيث برزت انتقادات تتعلق بنطاق الاختصاص، أي اتهامه بأنه ارتاد حقولاً معرفية لا يحق له ارتيادها.. هذا ما قالوه وهو يكتب عن الاستشراق ويدلف إلى ميدان السياسة ويدبج المقالات عن الموسيقى. غير أن ألمعيته الذهنية وقدرته على الرؤية المنهجية النقدية، والمسائل التي أثارها، وتلك الردود كلها على أفكاره، والتي اضطر أصحاب الاختصاص كتابتها ضده ونشرها، تدحض تلك الاتهامات وتجعل من سعيد واحداً من أبرز المثقفين العالمين الذين عرفهم القرن العشرين وأكثرهم تأثيراً في الأوساط الأكاديمية والإعلامية والثقافية. وهو أبداً لم يدّع أنه يمتلك الحقيقة ويحتكرها. وها هو في كَتابه الأنسنية والنقد الديمقراطي يكتب، ومن زاوية النظر الأنسنية كونها اتجاهاً معرفياً منفتحاً على العلوم الإنسانية المختلفة بأفق إنساني شامل؛

"صحيح أنه في مقدور المرء أن يكتسب الفلسفة والمعرفة، غير أن قابلية الذهن البشري لارتكاب الخطأ (بديلا من تحسنه المطرد) مستمرة مع ذلك. لذا يوجد في المعرفة الإنسانية دوما شيء غير مكتمل جذريا، شيء مؤقت وناقص وقابل للطعن والمجادلة.. وهو ما يصيب كل الفكرة الأنسنية بخلل تكويني مأساوي لا قبل لها أن تتخلص منه..يجب الاعتراف بالعنصر الذاتي في المعرفة والممارسة الأنسانويين والتصالح معه نوعا ما، طالما أن لا فائدة ترجى من محاولة تحويل الأنسنية إلى علم حيادي وحسابي".

شيّد إدوار سعيد صرحه المعرفي في تلك المساحة المشتركة بين اللغة والثقافة والمجتمع والسياسة. وطالما كان ولعه في العمل المقارن، ليس في مجال الأدب وحده، وإنما في المجال الثقافي الأعم، متحركاً عبر الحدود، أفقياً أكثر منه هرمياً، معادياً الاختصاص الضيّق بشروطه الصارمة ومحدداته.. بورتريته الخاص؛ صورة المنفي، حيث المنفى حالة دائمة لا رجعة عنها. وحيث الحركة خاصية تكافئ التشرد.. وهو تشرد مبهم كما يحلو له تسميته. تنبثق منه مهمة فكرية مرتبطة بالنقد، بُعدها الأساس دنيوي علماني "عالم القرون والزمان والتاريخ". وقد بقي إدوار سعيد، حتى آخر لحظة في حياته، مخلصاً لفكرته عن البديل اليساري الذي ينطوي على الحلول الممكنة والمعقولة والمقبولة (إنسانياً) لمشكلات العالم.